

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا
يُعَانُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ
مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد الوصية
بالصبر يحسن
ذكر الموقف
الفيصل من
الناس

لَمَّا رَغِبَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ ﷺ فِي أَوْلِيَائِهِ وَزَهَّدَ فِي أَعْدَائِهِ؛ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ عَلَى إِثَرِ ذَلِكَ مَا يَقُولُ لَهُمْ عَلَى وَجهِ يَعْمُهُمْ، وَيَعْمُ غَيْرَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَقُلِ﴾: أَيُّ: قُلْ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ: هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ ﴿الْحَقُّ﴾ كَأَنَّا ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁽¹⁾، فَهُوَ انْتِقَالٌ مِنْ ذِكْرِ الْوَصِيَّةِ بِصَحْبَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحَذَرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَوْقِفِ الْفَيْصَلِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْمَسَاوِمَةَ أَوْ الْمُدَاهَنَةَ بِدَعْوَى الْحِكْمَةِ وَالتَّسَامُحِ.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَعْتَدْنَا﴾: الْعَتَادُ: ادِّخَارُ الشَّيْءِ قَبْلَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ كَالْإِعْدَادِ، وَالْعَتِيدُ: الْمُعَدُّ وَالْمُعَدُّ، وَالشَّيْءُ الْعَتِيدُ: الْحَاضِرُ الْمُهَيَّأُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ [ق: 23]؛ أَيُّ: هَذَا مَا كَتَبْتُهُ مِنْ عَمَلِهِ عَتِيدٌ؛ أَيُّ: مُعْتَدٌ مُعَدُّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَكَنًا﴾ [يوسف: 31]؛ أَيُّ: هَيَّأْتُ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَعْتَدْنَا﴾؛ قِيلَ: هُوَ أَفْعَلْنَا مِنَ الْعَتَادِ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ أَعَدَدْنَا⁽²⁾.

(2) ﴿سُرَادِقُهَا﴾: السُّرَادِقُ؛ قِيلَ: فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ، وَالسُّرَادِقُ: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ مِنْ حَائِطٍ أَوْ مِضْرَبٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 464.

(2) الرَّاغِب، الْمَفْرَدَات، وَالْفَيْرُوزَابَادِي، بِصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ، مَادَّةُ (عَتَد).

سُرَادِفُهَا؛ أَيِ إِنَّهُمْ قَدْ أَحِيطُوا بِالنَّارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَقِيلَ: بَيْتٌ مُسَرَّدَقٌ: مَجْعُولٌ عَلَى هَيْئَةِ سُرَادِقٍ⁽¹⁾.

(3) **﴿كَالْمُهْلِ﴾**: الْمُهْلُ: دُرْدِيُّ الرَّيِّتِ، قَالَ: **﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾** [الْبُطُونُ: ٤٥] [الْبُطُونُ: 45]⁽²⁾، وَالْمُهْلُ: خُثَارَةُ الزَّيْتِ، وَيُقَالُ: النُّحَاسُ الذَّائِبُ، وَقِيلَ: الْفِلِزُّ، وَهُوَ جَوَاهِرُ الْأَرْضِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقِيلَ: ضَرَبٌ مِنَ الْقَطِرَانِ إِلَّا أَنَّهُ مَاءٌ رَفِيقٌ يُشَبِّهُ الزَّيْتَ، وَهُوَ يَضْرِبُ إِلَى الصُّفْرَةِ⁽³⁾، وَقِيلَ: حَبْتُ الْجَوَاهِرِ، أَوْ: مَا ذَابَ مِنْ صُفْرِ أَوْ حَدِيدٍ⁽⁴⁾.

(4) **﴿مُرْتَفَقًا﴾**: الرَّفْقُ: لِينُ الْجَانِبِ وَلَطَافَةُ الْفِعْلِ، وَصَاحِبُهُ رَفِيقٌ، وَرَفِيقُكَ: الَّذِي تَجْمَعُهُ وَإِيَّاكَ رُقَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي سَفَرٍ يُرَافِقُكَ، وَتُسَمَّى الرَّفْقَةُ مَا دَامُوا مُنْضَمِّينَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ وَمَسِيرٍ وَاحِدٍ، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾** [النِّسَاءُ: 69]؛ أَيِ: رَفَقَاءُ فِي الْجَنَّةِ، وَمَا يُقَابَلُ هَذَا الْمَعْنَى فِي النَّارِ هُوَ الْمُرَادُّ فِي قَوْلِهِ: **﴿يَنْسُ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾**، وَالْإِرْتِفَاقُ: التَّوَكُّؤُ عَلَى مِرْفَقِهِ، وَالْمِرْفَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مَنْ الْمِتْكَأَ وَالْيَدِ وَالْأَمْرِ، قَالَ اللَّهُ: **﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾** [الكهف: 16]؛ أَيِ: رَفَقًا وَصَلَاحًا لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ⁽⁵⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

تُخَاطَبُ الْآيَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾**؛ أَيِ: وَقُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُمْ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَانَ أَمْرُهُمْ فُرْطًا، قُلْ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ قُرْآنٍ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ؛ وَالرَّبُّ هُوَ الْخَالِقُ وَالْمُرَبِّي وَالرَّازِقُ، وَقَوْلُهُ: **﴿فَمَنْ شَاءَ﴾**

الْحَقُّ أَبْلَجٌ
وَاضِحٌ، وَغَايَةُ
التَّزَامِيهِ بَيْنَهُ
الْمَالِ، وَعَاقِبَةُ
مُخَالَفَتِهِ ظَاهِرَةٌ
الْحَالِ

(1) الزَّائِبُ، الْفُرْدَاتُ، مَادَّةُ: (سَرْدَقُ).

(2) الزَّائِبُ، الْفُرْدَاتُ، مَادَّةُ: (مُهْل).

(3) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، مَادَّةُ: (مُهْل).

(4) ابْنُ بَيْبِذَةَ، الْحُكْمُ، مَادَّةُ: (مُهْل).

(5) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، مَادَّةُ: (رَفَقَ).

فَلْيُؤْمِنُ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ليس لبيان التّخيير بين الإيمان والكفر؛ بل المراد به التّهديد والتّخويف، بدليل قوله بعدها: **﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾**، فما جئكم به هو الحقّ الذي يجب اتّباعه، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل؛ فإن عاقبته الخير والثّواب، ومن شاء أن يكفر به فليكفر؛ فإن عاقبته الخسران والعقاب⁽¹⁾.

فقد هيّأنا وأعدّنا للكافرين نارًا عظيمةً، أحاط بهم سرادقُها؛ أي: أحاط بهم سياجُها إحاطةً تامّةً؛ فهم مُحاصرون فيها من كلّ جانبٍ، وقوله: **﴿وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾** بيان لما ينزل بهم من عذابٍ عندما يطلبون الغوثَ ممّا هم فيه من كربٍ، و**﴿كَالْمُهْلِ﴾**: يُطلق على ما أُذيب من عناصر الأرض ومعادنِها مثل الحديد والرّصاص والنّحاس، ونحو ذلك؛ أي إنّ هؤلاء الكافرين إن يطلبوا الغوثَ عمّا هم فيه من كربٍ وعطشٍ يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل في شدّة حرارته، هذا الماء الذي يحرق الوجوه حال اقترابها منه، فهو بئس الشّراب الذي يُغاثون به، **﴿وساءت﴾** النّار منزلًا ينزلون به، و(المرتفق): المتكأ من الارتفاق؛ وهو الاتكاء على مرفق اليد، ومُتَكَأٌ يتكئون عليه⁽²⁾.

❁ الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

معنى الواو ودلالاتها:

بيان مكانة الحقّ
تتويج لما سبق
من الإرشاد
والتّوجيه

الواو في قوله تعالى: **﴿وقل الحق من ربكم﴾** عاطفةٌ، والجملة معطوفةٌ على الأوامر السّابقة، فعطف الأمر بالإعلام بمجيء الحقّ من الله سبحانه، والحقّ هو القرآن الكريم وما يتلى عليهم؛ لأنّه ذكر قبلها **﴿وَأَنزَلْنَا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾** [الكهف: 27]، وهذا

(1) طنطاوي، الوسيط، ص: 2712.

(2) طنطاوي، الوسيط، ص: 2712.

العطف يقتضي دخول جملته في جملة الأوامر والنواهي السابقة التي هي بمثابة إرشاد وتوجيه في كيفية التعامل مع المخالفين، الذي يُعدُّ تنويجاً لما سبق.

معنى التعريف في لفظ «الْحَقُّ»:

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ﴾: المعنى: وقل لهم يا محمد: هذا الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ؛ أي: هذا القرآن، والأمرُ بالإعراض عنكم وترك طاعتكم، وصبر النفس مع المؤمنين⁽¹⁾، وقد أفاد تعريف الحق هنا التّفخيم والتّعظيم، فلا شيء أحقُّ ممّا جاء من عند الله تعالى؛ وهو القرآن الكريم الذي جاءكم بأحقّ طريق وأصدقّه، وهو طريق الرسول عن جبريل ﷺ عن الله سبحانه.

بلاغة لفظ «الْحَقُّ» بين أن تكون مُسنّداً إليه ومُسنّداً:

قدّم المُسنّدُ إليه «الْحَقُّ» في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للتشويق، فإنّ السّامع عندما يسمع لفظ «الْحَقُّ» بهذا التعريف يتشوّق لمعرفة الخبر، فيأتي الخبر مُتمكّناً في النفس، فكلُّ حقٍّ هو من عند الله، ولا حقٌّ في الوجود إلا أن يكون من عند الله سبحانه، وهذا على جعل «الْحَقُّ» مبتدأً.

ويجوز أن يكون «الْحَقُّ» خبر مبتدأ محذوفٍ على تقدير: (هذا الحقُّ)؛ أي: هذا القرآن أو هذا الإعراض عنكم، وترك الطّاعة لكم وصبر النفس مع المؤمنين⁽²⁾، وقال الزّمخشري: الحقُّ خبرٌ مبتدأ محذوفٍ، والمعنى: جاء الحقُّ وزاحتِ العلل فلم يبقَ إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النّجاة أو في طريق الهلاك⁽³⁾، وتكون نكتة الحذف توجيه الأنظار إلى المُسنّد، فهو المطلوب في

القرآن
بمضامينه هو
الحقُّ من الله
تعالى

تقديم المُسنّد
إليه (الحق)
للتشويق

حذف المُسنّد
إليه لتوجيه
الأنظار إلى
المُسنّد

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3 / 513.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7 / 168.

(3) الزّمخشري، الكشاف: 2 / 672.

الإيراد، وعلى تقدير تقديم المُسند إليه أو حذفه؛ فإنَّ النُّكْثَةَ ظاهرةً في بيان أنَّ الحقَّ هو ما كان من عند الله تعالى وحده دون سواه، وأنَّ ما يدَّعيه النَّاسُ من غير طريق القرآن، فهو باطلٌ يوصلُ صاحبه إلى النارِ المحيطةِ بالباطل الذي يدَّعونه.

دلالة ﴿من﴾ الابتدائية:

حرفُ ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾؛ للابتداء، فإنَّ ﴿الْحَقُّ﴾ ابتداءً هو مَنْ الله تعالى، وكلُّ حقٍّ في ابتدائه هو من عند الله، لكن أراد النَّظْمُ هنا القرآن، وتقديره: هذا الحقُّ؛ أي: هذا القرآن⁽¹⁾، ودلَّ حرفُ الابتداء على الانتهاء، أي: نزلَ الحقُّ مَنْ الله تعالى ليصلَ إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين، فما بين الابتداء والانتهاء يكونُ الحقُّ جليًّا واضحًا، وفيه أنَّ ما انتهى إليه الحقُّ هو الحقُّ المُعْتَبَرُ، وما دونه فهو باطلٌ لا قيمةَ له عندَ الله تعالى، ولو تكاثرَ على زعمه وادِّعائه المُبْطِلُونَ.

وجهُ إضافة لفظِ الرُّبُوبِيَّةِ إلى كافِ خطابِ الجميع:

أُضِيفَ لفظُ الرُّبُوبِيَّةِ في قوله تعالى: ﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾ إلى ضميرِ الخطاب، والرُّبُّ هو المُرَبِّي، وهو الرَّازِقُ والمُقَدِّرُ والقيُّومُ، فيكونُ الخطابُ مُسْتَغْرَقًا لِلنَّاسِ جميعًا بقريضةِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾؛ فتكونُ إضافة لفظِ الرُّبُوبِيَّةِ إلى كافِ خطابِ الجميع قد أفادَ نسبةَ أنَّ المُرَبِّيَّ والرَّازِقَ والمُقَدِّرَ والقيُّومَ، وصاحبَ جميعِ الأفضالِ عليكم وخالقها لكم، هو ربُّكم، فمن بابِ أَوْلَى أن يكونَ صاحبُ هذه الأفضالِ مُنْزَلَ الحقِّ عليكم؛ لتكونوا على الحقِّ وعلى المَحَجَّةِ البيضاءِ.

معنى الفاء ودلالاتها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3 / 513.

الحقُّ المُعْتَبَرُ
هو ما انتهى
إلى المؤمنين مَنْ
القرآن

خالقُ الأكوانِ
وصاحبُ
الأفضالِ
هو الحقيقُ
بالعبادةِ
والتَّوْحِيدِ

لترتب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد، والمعنى؛ أي: عقيب تحقق أن ما أوحى إلي حق لا ريب فيه، وأن ذلك الحق من جهة ربكم، وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدّقك فيه فليؤمن، ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفع⁽¹⁾، وفي العبارة من التهديد، وإظهار الاستغناء عن متابعتهم، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم - وجوداً وعدمًا - ما لا يخفى⁽²⁾.

بلغة الكناية في التسوية بين الطرفين:

سوّت الآية في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ بين مشيئة الإيمان ومشيئة الكفر للناس، والمقصود في التسوية في ذلك عند المتكلم الكناية عن قلة الاكتران بفعل المخاطب؛ أي: إن ذلك الإيمان أو الكفر لا يزيدان من ملك الله شيئاً ولا ينقصان، والله الغني والناس هم الفقراء إليه، وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماءً إلى أن رائدَهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل⁽³⁾.

بلغة الكناية في قوله: ﴿فَلْيُؤْمِنْ﴾ و﴿فَلْيُكْفُرْ﴾:

فعل ﴿فَلْيُؤْمِنْ﴾ وفعل ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾ مُستعملان كناية عن الوعد والوعيد، وصيغة الأمر لا معنى الطلب، فهذه الصيغة وعد ووعيد وليست بتخيير⁽⁴⁾، وقرينة عدم إرادة الطلب التقابل وبيان عاقبة الفريقين، فإن هذا يجعل المطلوب بصيغة الأمر هو لازمها وهو المعنى الكنائي.

بلغة الاستعارة في الأمر ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾:

الأمر والتخيير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾؛ ليس على

دلّت الفاء
على التعقيب
والتهديد

استغناء الله
عن عباده،
وإظهار عدم
الاكتران

إرادة الوعد
والوعيد لا طلب
الفعل

عدم المبالاة
بالكافرين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 219 / 5.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 30 / 7.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 359 / 23.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 107 / 21.

حقيقته، فالأمرُ بالكفر غيرُ مُراد؛ فهو استعارةٌ للخُذلانِ والتَّخليةِ بتشبيهِ حالٍ مَنْ هو كذلك بحالِ المأمورِ بالمخالفةِ، ووجهُ الشَّبهِ هو عدمُ المبالاةِ والاعتناء به فيهما، وهذا ردُّ عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراءِ المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه، فقليل لهم: إيمانكم إنما يعودُ نفعُهُ عليكم، فلا نبالي به حتى نطردهم من أجل ذلك⁽¹⁾.

بلغة تقديم الجملة على الجملة المقابلة لها:

قَدِّمَتْ جُمْلَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ على جُمْلَةٍ ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾؛ لأنَّ إيمانهم مرغوبٌ فيه⁽²⁾، وهو سببُ إرسالِ الرُّسلِ بالرسالاتِ السَّماويَّةِ، ودعوةِ النَّاسِ إلى الإيمانِ ونهيهم عن الكفر؛ إذ سبقتِ الأوامرُ والنَّواهي لنَبَذِ الكفرِ والتزامِ الإيمانِ وأهله؛ بل إنَّ محورَ القضيةِ كُلِّها هو طلبُ الإيمانِ للنَّاسِ، والعبارةُ وإن كانت كنايةً عن الوعدِ والوعيدِ؛ أي: فليخترْ كلُّ امرئٍ لنفسه ما يجده غداً عندَ الله سبحانه⁽³⁾؛ إلَّا أنَّ فيها إيماءً إلى التَّرجيبِ في الإيمانِ، وأنَّه وإن كان الأمرُ اختياريًّا للعبادِ إلَّا أنَّ الإيمانَ هو أوَّلُ ما يُذكرُ.

فَنُ بَدِيعِ الطَّبَاقِ فِي ﴿فَلْيُؤْمِنْ﴾ وَ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ طَبَاقٌ بين لفظي الإيمان والكفر، "وفاعلُ المشيئةِ في الموضعينِ ضميرٌ عائِدٌ إلى (مَنْ) الموصولةِ في الموضعينِ"⁽⁴⁾، ويُفيد هذا الأسلوبُ شمولَ كلِّ المشيئاتِ واختياراتِ النَّاسِ؛ فقد شملَ ذلك الطَّبَاقُ مَنْ يؤمنُ وإيمانه مشوبٌّ بالكفر، ظنًّا منه أنَّه مؤمنٌ، فيكونُ ظالمًا لنفسه، فإنَّما يظهرُ ذلك واضحًا جليًّا يومَ القيامةِ إذ قال بعدها: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، وفائدةُ هذا الطَّبَاقِ أيضًا التَّسويةُ؛ فاللهُ

طلبُ الإيمان
بالله هو محورُ
الرسالاتِ
السَّماويَّةِ

إحاطةُ الله
بمشيئاتِ عباده
كلِّها وتسويتها
في ميزانِ الله
تعالى

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 30 / 7 - 31.

(2) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْوير: 307 / 15.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 513 / 3.

(4) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْوير: 307 / 15.

تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين، ولا يضره كفر الكافرين؛ بل نفع الإيمان يعود عليهم، وضرر الكفر يعود عليهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 1].

علة فصل جملة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾:

جملة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ "مُستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن ما دل عليه الكلام من إكمال الإيمان والكفر إلى أنفسهم، وما يفيد من الوعيد كلاهما يؤثر في النفوس أن يقول قائل: فماذا يلاقي مَنْ شاء فاستمر على الكفر؟! فيُجاب بأن الكفر وخيم العقاب عليه" (2)، فإن في قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ وعيد شديد، وتأكيدهم للتهديد وتعليل لما يفيد من الزجر عن الكفر، أو لما يفهم من ظاهر التخيير في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ من عدم المبالاة بكفرهم، وقلة الاهتمام بزجرهم عنه، فإن إعداد جزائه من دواعي الإملاء والإمهال، وهو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي (3).

فائدة فن اللَّفِّ والنَّشْرِ غير المرتَّب:

في الآية مع سابقتها لف ونشر غير مرتَّب؛ إذ بدأ بالمؤمنين وثنى بالكافرين، ثم بدأ بذكر عاقبة الظالمين، وثنى بجزاء المؤمنين، "فلما تقدّم الإيمان والكفر، أعقب بما أعدّ لهما، فذكر ما أعدّ للكافرين يلي قوله: ﴿فَلْيُكْفُرْ﴾، وأتى بعد ذلك بما أعدّ للمؤمنين، ولما كان الكلام مع الكفار، وفي سياق ما طلبوا من الرسول ﷺ كانت البداية بما أعدّ لهم أهم وأكد (4)، وفائدة اللَّفِّ والنَّشْرِ المعكوس إبراز عذاب الكافرين؛ باعتبار أن ما سبق ليس تخييراً، وإنما هو تهديد لهم،

التهديد لمن شاء
الكفر وتعليل
استحقاقه
الوعيد

إبراز عذاب
الكافرين باعتبار
أن المتقدم هو
محض تهديد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 107 / 21.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 308 / 15.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 31 / 7.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 169 / 7.

وَأَنْ لَا سَبِيلَ لِمَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ فَحَصَرَ
الكافرين بين طرفي الإيمان، ممّا أوحى بانحسار الكفر وخذلانه،
شاء مَنْ شاء وأبى مَنْ أبى.

غرض إسناد فعل (أَعْتَدْنَا) إلى ضمير العظمة:

إعداد نار جهنم
لمن ظلم نفسه
بالكفر

قوله: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ مأخوذ من العتاد؛ وهو الشيء المُعدُّ الحاضر⁽¹⁾،
وقد أسند ذلك الإعداد إلى ضمير العظمة (نا)؛ لبيان شديد
الاعتناء به؛ وما يتضمّنه من الوعيد العظيم للظالمين أنّه إعداد الله
تعالى لتلك النار التي جاء وصفها فيما بعد، فلمّا وصف تعالى الكفر
والإيمان والباطل والحقّ؛ أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال
الباطلة، وبذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح، فقال تعالى بعد
ذلك: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾؛ إذ المعنى: اعتدنا لمن ظلم نفسه
تلك النار التي جاء وصفها⁽²⁾.

سرّ العدول عن وصف (الكفر) إلى وصف (الظلم):

الظلم هو علّة
الكفر الحقيقية
التي بها تتحقّق
الخسارة

بعد أن ذكر النظم الكريم صفة الكفر في قوله تعالى:
﴿فَلْيَكْفُرْ﴾؛ عدل إلى وصفهم بالظالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلظَّالِمِينَ﴾. وذلك أنّ التعبير عن الكافرين بـ (الظالمين) للتنبية على
أنّ مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحدّ، ووضع للشيء في غير
موضعه⁽³⁾؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾؛ أي: أعتدنا لمن
ظلم نفسه، ووضع الإيمان في غير موضعه، والأنفة في غير محلّها،
فعندما استحسن بهواه وأنف عن قبول الحقّ وأدار ظهره للإيمان؛
فيكون قد ظلم نفسه ظلماً عظيماً، فأخبر تعالى أنّه أعدّ لهؤلاء
الأقوام ناراً وهي الجحيم⁽⁴⁾، أو يمكن أن يكون المراد بالظالمين أهل

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3 / 513.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21 / 102.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 7 / 31.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21 / 102.

الشِّرْكِ؛ لَأَنَّهُمْ أَوَّلَىٰ مَنْ يَسْتَحِقُّ عَذَابَ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: 13].

ويظهرُ سرُّ العُدُولِ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الظُّلْمِ فِي الْإِنْتِقَالِ مِنْ ذِكْرِ النَّتِيجَةِ وَهِيَ الْكُفْرُ، إِلَى ذِكْرِ سَبَبِهَا وَعِلَّتِهَا وَهِيَ الظُّلْمُ.

غرض تنكير ﴿نَارًا﴾:

لَمَّا ذَكَرَ ﷺ مَا أَعَدَّ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ اشْتَرَطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ النَّمَائِزَ فِي الْعَنَاءِ بِهِمْ وَاسْتِبْعَادِ الْفُقَرَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَدْ تَوَعَّدَهُمْ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾؛ وَجَاءَ التَّنْكِيرُ لِلنَّارِ لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّعْظِيمِ، ثُمَّ يَأْتِي وَصْفُ تِلْكَ النَّارِ لِيُعْلَمَ عَظِيمُ شَأْنِهَا وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ.

بيان عظيم شأنِ
النَّارِ وما فيها
من أهوالٍ

دلالة التعبير بمفردة الإحاطة:

وَصَفَّ تَعَالَى النَّارَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ وَالسُّرَادِقُ هُوَ الْحِجْرَةُ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْفُسْطَاطِ، فَأَثَبَتْ لِلنَّارِ شَيْئًا شَبِيهًا بِذَلِكَ يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا مُخْلَصَ لَهُمْ مِنْهَا، وَلَا فُرْجَةَ يَتَفَرَّجُونَ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ غَيْرِ النَّارِ؛ بَلْ هِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ، فَهِيَ كُنَايَةٌ عَنِ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِالسُّرَادِقِ الدِّخَانُ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْظِلْهُنَّ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [الأنبياء: 30] كُنَايَةٌ عَنِ الْأَبْعَادِ الثَّلَاثَةِ، فِدَلْ ذَلِكَ عَلَى شُمُولِ الْفُضَاءِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ لِأَنَّ الدِّخَانَ لَا يَتَحَدَّدُ بِاتِّجَاهٍ وَاحِدٍ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ حَرَكَتُهُ بِالْإِتِّجَاهَاتِ كُلِّهَا، فَيَمْلَأُ الْفُضَاءَ كُلَّهَا، وَقَالُوا هَذِهِ الْإِحَاطَةُ بِهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، فَيَغْشَاهُمْ هَذَا الدِّخَانُ، وَيُحِيطُ بِهِمْ كَالسُّرَادِقِ حَوْلَ الْفُسْطَاطِ⁽¹⁾.

كناية عن اليأس
من الخلاص من
النَّارِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 102 / 21.

اختلاط الدخان
والنار بأجساد
الكافرين
وأنفاسهم

بلغة تقديم ﴿يَهُمُّ﴾ على الفاعل ﴿سَرَادِقُهَا﴾:

قَدَّمَ شَبَهُ الْجُمْلَةِ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ ﴿يَهُمُّ﴾ عَلَى الْفَاعِلِ ﴿سَرَادِقُهَا﴾؛
لِإِفَادَةِ اخْتِصَاصِهِمْ بِهَذِهِ الْإِحَاطَةِ، وَبِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْعَذَابِ فِي
النَّارِ، فَكَأَنَّ الْإِحَاطَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا لَهُمْ، وَلَعَلَّ مَعْنَى الْإِحَاطَةِ بِالدَّخَانِ
فِيهِ مَدْلُولٌ أَقْوَى؛ لِمُلَاصَقَةِ ذَلِكَ الدَّخَانِ لِأَجْسَادِهِمْ، وَاخْتِلَاطِهِ
بَأَنْفَاسِهِمْ، وَهَذَا مُنْتَزَعٌ مِنْ دَلَالَةِ الْبَاءِ؛ أَيُّ: أَحَاطَ الدُّخَانُ بِالْأَجْسَادِ
حَتَّى تَخَلَّلَهَا.

بلغة التشبيه والاستعارة في لفظ ﴿سَرَادِقُهَا﴾:

النار تحيط
بالكافرين
كخيمة مغلقة
عليهم

الْمَقْصُودُ بِالسَّرَادِقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهَا﴾؛ أَيُّ:
فُسْطَاطُهَا، وَهِيَ الْخِيْمَةُ؛ إِذْ شَبَّهَ مَا يَحِيطُ بِهِمْ مِنَ النَّارِ بِالسَّرَادِقِ⁽¹⁾؛
فَإِنَّ انْتِشَارَ لَهَبِ النَّارِ فِي الْجِهَاتِ شَبِيهُهُ بِالسَّرَادِقِ، وَهُوَ تَشْبِيهُهُ مُؤَكَّدٌ
مِنْ قَبِيلِ تَشْبِيهِهِ الْمُضَافِ بِالْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَيُّ: تَشْبِيهِ السَّرَادِقِ بِالنَّارِ،
وَيُطْلَقُ السَّرَادِقُ عَلَى الْحُجْرَةِ أَوْ الْحَظِيرَةِ حَوْلَ الْفُسْطَاطِ، لِلْمَنْعِ
مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ⁽²⁾، وَقِيلَ: هُوَ الْخِيْمَةُ، وَقِيلَ كَذَلِكَ: الْحُجْرَةُ؛ أَيُّ:
الْحَاجِزُ الَّذِي يَكُونُ مُحِيطًا بِالْخِيْمَةِ يَمْنَعُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا، فَقَدْ يَكُونُ
مِنْ جِنْسِ الْفُسْطَاطِ أَدِيمًا أَوْ ثَوْبًا، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ ذَلِكَ كَالْخَنْدَقِ⁽³⁾،
وَقِيلَ: هُوَ دَخَانٌ يَحِيطُ بِالْكَفَّارِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّارَ⁽⁴⁾.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السَّرَادِقُ فِي الْآيَةِ هُنَا تَخْيِيلًا لِاسْتِعَارَةِ مَكْنِيَّةٍ
بِتَشْبِيهِ النَّارِ بِالْذَّارِ⁽⁵⁾، أَوْ تَشْبِيهِهِ بِالْحُجْرَةِ؛ فَالسَّرَادِقُ هُوَ الْجِدَارُ
الْمُحِيطُ، تَمَامًا كَالْحُجْرَةِ الَّتِي تَدُورُ وَتُحِيطُ بِالْفُسْطَاطِ⁽⁶⁾، وَأَثْبَتَ لَهَا

إقفال النار على
الكافرين مثل
إقفال حُجْرَةٍ
على أصحابها

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 2 / 672.

(2) الْقَاسِمِيُّ، مُحَاسِنُ التَّأْوِيلِ: 7 / 31.

(3) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15 / 308.

(4) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 2 / 672.

(5) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 15 / 308.

(6) ابْنُ عَطِيَّةٍ، لُحْزَرُ الْوَجِيزِ: 3 / 513.

سُرادقٌ مبالغَةٌ في إحاطة دارِ العذابِ بهم، وشأنُ السُّرادقِ يكونُ في بيوتِ أهلِ التَّرفِ؛ فإثباته لدارِ العذابِ استعارةٌ تهكميَّةٌ⁽¹⁾.

دلالة استعمال (إِنْ) دُونَ (إِذَا) مع تحقُّقِ الاستغاثَةِ:

تُسْتَعْمَلُ (إِنْ) في المعاني محتملة الوقوع والمشكوكِ في حصولها⁽²⁾، وهي على خلاف (إِذَا) التي تكون للمقطوع بحصوله ولكثير الوقوع⁽³⁾، وقد جاءت هُنَا (إِنْ) مع أَنَّ الاستغاثَةَ حاصلةً منهم لا محالة؛ لما يَرون ويذوقون من سوءِ العذابِ في تلك النَّارِ المهولة العظيمة؛ وذلك لأنَّ الآيةَ خطابٌ لهم، وهم المُنكَرُونَ لهذه النَّارِ، فإنَّ جانب الاستغاثَةِ عندهم مشكوكٌ فيه من قِبَلهم؛ بل هو عندهم من قبيل الوهم، فاستعمل (إِنْ) للتعبير عن تلك الاستغاثَةِ في اعتقادهم؛ فقال: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾، وفيه على هذا استعارةٌ تهكميَّةٌ.

نكتة التعبير بصيغة المضارع ﴿يَسْتَغِيثُوا﴾:

فائدة استعمال صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ الدلالة على التَّجَدُّد والاستمرار، فهم دائمو الاستغاثَةِ، فلن يُغَاثُوا إلا بماءٍ كالمُهْلِ، فتزيد حاجتهم إلى إطفاء النَّارِ في أجسادهم، فيستغيثون بماءٍ ليُبرِّدوا أجسادهم، فلا يُغَاثون إلا بماءٍ كالمُهْلِ، وهكذا دواليك، كما أنَّ فيها تصويرًا لحالهم وهم يستغيثون في النَّارِ والعياذُ بالله من أهلها.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿يُغَاثُوا﴾:

عبر النظم الكريم عن فعل استغاثَةِ أهلِ النَّارِ بصيغة المَبْنِيِّ للمفعول؛ ليدلَّ على هوانِ حالهم عند مُغِيثِهِمْ، وأنهم لا مُغِيثَ لهم حقيقةً من هذه النَّارِ، إنَّما هو عقابٌ وعذابٌ فوق عذابهم،

خطابُ المنكرين
بناءً على
اعتقادهم تهكُّمٌ
بهم

الاستغاثَةُ
مُتَجَدِّدَةٌ ما
دامتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا ما
شاءَ رَبُّكَ

إغاثَةُ أهلِ النَّارِ
مزيِّدٌ عذابٍ
وتجديدٌ عقابٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 308 / 15.

(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 4 / 9، والعلوي، الطراز: 298 - 299.

(3) السيوطي، الإتقان: 149 / 1.

فَتَكُونُ الْإِغَاثَةُ تَهْكُمًا بِهِمْ وَبِحَالِهِمْ، وَبِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ يَزِيدُ مَنْ التَّهْكُمُ بِحَالِهِمْ.

فَنُ الْجَنَاسِ بَيْنَ: ﴿يَسْتَغِيثُوا﴾ وَ﴿يُعَاثُوا﴾:

تتنوع استغاثة
أهل النار ويتنوع
عذابهم فيها

الجناسُ يدلُّ على سرعة الاستجابة بسبب تتابع الكلمتين: ﴿يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا﴾، ويحتملُ أن تكون هذه الاستغاثةُ حقيقيةً، وأنَّهم إذا طلبوا ماءً ليشربوا، أو ليُبرِّدوا أجسادهم من نار جهنم فإنَّهم سوف يغاثون بهذا المَهْلُ، قال تعالى: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۖ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾ [الغاشية: 4 - 5]، ويحتملُ أن يستغيثوا من حرِّ جهنم فيطلبوا ماءً يصبُّونه على أجسادهم للتبريد فيعطون هذا الماء، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: 50]، وقال في آية أخرى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ۖ﴾ [إبراهيم: 50]، فإذا استغاثوا من حرِّ جهنم صُبَّ عليهم القَطْرَانُ الذي يعمُّ كلَّ أبدانهم فتكونُ عليهم كالسراويل والقمصان⁽¹⁾.

بلغة الاستعارة التهكمية في قوله تعالى: ﴿يُعَاثُوا﴾:

استغاثة
الكافرين من
شدة العذاب
طلب زيادة
العذاب

قوله تعالى: ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ واردٌ على سبيل الاستهزاء⁽²⁾؛ فالاستغاثة: طَلَبُ الْغُوثِ؛ وهو الإنقاذُ من شدة حرِّ جهنم على أجسادهم طلباً بتخفيف الألم، والاستغاثة من شدة العطش النَّاشِئِ عن الحرِّ فيسألون الشَّرَابَ، وقد أوماً إلى شمول الأمرين؛ إذ ذكر وصفين لهذا الماء بقوله: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾، والإغاثة مستعارة للزيادة ممَّا استُغِيثَ من أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشيء بما يُشبهه ضده⁽³⁾؛ أي: وإن يستغيثوا من شدة العذاب؛ يَزِدُّهم عذاباً وألماً فوق عذابهم وآلامهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21 / 103.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21 / 103.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15 / 308.

براعة تشبيه الماء بالمُهْل:

شُبِّهَ الماءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ بِالْمُهْلِ؛ وَالتَّشْبِيهُ فِي سَوَادِ اللَّوْنِ وَشِدَّةِ الْحَرَارَةِ، فَلَا يَزِيدُهُمُ الْمَاءُ إِلَّا عَذَابًا، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾⁽¹⁾، وَالْمُهْلُ: مَا أُذِيبَ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، وَقِيلَ: دُرْدِيُّ الزَّيْتِ⁽²⁾، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ كُلُّ مَا أُذِيبَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ رِصَاصٍ أَوْ نَحْوِ هَذَا مِنَ الْفِلْزِ حَتَّى يَمِيعَ⁽³⁾، فَالْمُهْلُ صَهِيرُ الْمَعَادِنِ، وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ عِلْمِيَّةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ مَعَ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَهُ لِلشُّرْبِ، وَبَيَانٌ ذَلِكَ أَنَّ صَهِيرَ الْمَعَادِنِ لَشِدَّةِ إِشْعَاعِهِ بِالْحَرَارَةِ؛ فَإِنَّهُ يَشْوِي وَجُوهَ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ مِنْهُ يُرِيدُونَ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهُ فَلَا يَشْرَبُونَ، وَنَكَتُهُ تَشْبِيهُ الْمَاءِ بِالْمُهْلِ تَقْرِيرُ التَّهْكُمِ؛ فَهُمْ يَطْلُبُونَ مَاءً فَيَأْتِيهِمُ الْمَاءُ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي أَرَادُوهَا؛ بَلْ عَلَى صِفَةٍ أُخْرَى مُنَافِيَةٍ لِغَايَتِهِمْ فِي طَلَبِ الْمَاءِ.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يَشْوِي﴾:

جاء التعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ طَلَبَهُمْ لِهَذَا الْمَاءِ يَتَجَدَّدُ، وَمَعَ تَجَدُّدِ طَلَبِهِمُ لِلْمَاءِ يَتَجَدَّدُ شَوْيُ وَجُوهِهِمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَطْلُبُونَ فِيهِ الْمَاءَ تَشْوِي وَجُوهَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَتَوَقَّضُونَ عَنِ الْإِسْتِغَاثَةِ؛ كَمَا أَنَّ الْفِعْلَ الْمَضَارِعَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شَوْيَ الْوُجُوهِ لَا يَقَعُ دَفْعَةً وَاحِدَةً؛ بَلْ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَهَذِهِ خَاصِّيَّةُ صَهَارَةِ الْمَعَادِنِ أَنَّهَا تُشْعُّ طَاقَتَهَا بِسَبَبِ انصهارِ المعدنِ فِيهَا.

معنى التعريف والجمع في لفظ ﴿الْوُجُوهَ﴾:

فائدة التعريف في لفظ ﴿الْوُجُوهَ﴾ التَّعْمِيمُ؛ فَكُلُّ مَنْ أَصَابَهُ هَذَا الْمَاءُ شَوِيَ وَجْهَهُ، وَفَائِدَةُ جَمْعِ الْوُجُوهِ أَنَّهَا تُصَبِّحُ كَالْوَجْهِ الْوَاحِدِ فَلَا يُعْرَفُ أَحَدٌ مِنَ الْآخِرِ، وَلَا يُمَيِّزُ أَحَدٌ مِنَ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ وَجُوهَهُمْ

إِتْيَانُ الْمَطْلُوبِ
لَا عَلَى صِفَةٍ
طَالِيَةٍ؛ بَلْ عَلَى
صِفَةٍ مُنَافِيَةٍ

نَارٌ حَارِقَةٌ لَا
تَفْقَدُ طَاقَتَهَا
فِي التَّجَدُّدِ
وَالِاسْتِمْرَارِ

تَنَوُّعُ الْوُجُوهِ فِي
النَّارِ كَتَنَوُّعِهَا فِي
الدُّنْيَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 308 / 15.

(2) الرَّمْخَشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 2 / 672.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3 / 513.

تكونُ قد انشوتَ وذهبَ جلدها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]، كما أنَّ الوجوه أنواعٌ
يومَ القيامةِ، كما كانت أنواعًا في الدُّنيا في كفرِها ونفاقِها.
بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قوله: ﴿الْوُجُوهُ﴾:

جزاءُ المعرضِ
بوجهِه عن
الحقِّ تعريضه
للنَّارِ في الآخرةِ

عبَّرَ بالوجوه في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُ الْوُجُوهُ﴾ وأراد جميعَ
أبدانهم، والمعنى أنَّه ينضجُ به جميعُ جلودهم كقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُمْ﴾ [النساء: 56]⁽¹⁾، والوجهُ أشدُّ الأعضاء تالمًا من حرِّ النَّارِ، قال
تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [الأنعام: 104]⁽²⁾،
وهذا من قبيلِ المجازِ المرسلِ، فذكرَ الوجهَ وأرادَ الجسدَ كُلَّهُ،
وعلاقةُ هذا المجازِ الجزئيةُ، وفائدتهُ أنَّه ذكرَ ما يواجهُ به الإنسانُ
غيره، وما يُعرف به الإنسانُ عن غيره من النَّاسِ، فيكونُ أولئك قد
اختلطت أشكالهم فلا يُعرف أحدٌ من الآخر لبشاعةِ ما قد أصابهم
من شواءِ الوجوهِ وسلخِها واختلاطِ معالمِها، وخصَّ الوجوهَ هنا؛ لأنَّ
هؤلاءَ أعرضوا بوجوههم عن الإيمانِ، ولم يُقدِّموا شيئًا ابتغاءَ وجهِ
الله؛ فناسبَ ذِكْرُ وجوههم مجازًا عن جميعِ أجسادهم.

نكتةُ جملةِ ﴿يَسْئَلُ الشَّرَابُ﴾:

التَّأكيدُ على
ذِكْرِ العذابِ
الحسوسِ
بالعذابِ
المعنويِّ

جملةُ ﴿يَسْئَلُ الشَّرَابُ﴾ "مستأنفةٌ ابتدائيةٌ لتشنيعِ ذلك الماءِ
مشروبًا كما شُنِعَ مُغتَسَلًا بقوله: ﴿يَسْئَلُ الْوُجُوهُ﴾، وفي عكسه الماءُ
الممدوحُ في قوله تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42]⁽³⁾،
وقوله: ﴿يَسْئَلُ الشَّرَابُ﴾؛ أي إنَّ الماءَ الذي هو كالمُهْل بئسَ الشَّرَابُ؛
لأنَّ المقصودَ بشُرْبِ الشَّرَابِ تسكينُ الحرارة، وهذا يبلغُ في احتراقِ
الأجسامِ مبلغًا عظيمًا⁽⁴⁾، ونكتةُ هذه الجملة بعد بيانِ شَوِي الشَّرَابِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 169.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 309.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 309.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 21/ 103.

للولجوه؛ التأكيد على ذلك بذكر وصفٍ معنويٍّ، أي: إن لم تعلم بؤسَه؛ فاعلم أنّه بئسَ الشرابُ.

بلاغة الحذف ونكتة العُدول عن الماء إلى الشراب:

المخصوص بالذمّ في قوله تعالى: ﴿بئسَ الشرابُ﴾ محذوفٌ دلّ عليه قوله: ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ﴾؛ والتقدير: (بئسَ الشرابُ ذلك الماءُ)، أو (بئسَ الشرابُ هو)؛ أي: الماء الذي يُعَاثُونَ به⁽¹⁾، وحذف لفائدة ألا يُتَوَهَّمُ بأنّه (ماء)، فلو قيل: (بئسَ الشرابُ الماءُ الذي يشربون)؛ لتَصَوَّرَ السامعون أنّه من قَبيلِ ماءِ الدُّنيا الذي يعرفونه؛ لكنّه ليس بماءٍ أصلاً، إنّما هو بئسَ ما يُشْرَبُ، وإنّ يستغيثوا فإنّما يُعَاثُونَ به، فيُجَبِّرون على شُرْبِهِ ليزدادوا عذاباً فوق عذابهم، ودلّ على ذلك قوله: ﴿بئسَ الشرابُ﴾.

لا يُغَاثُ أَهْلُ
النَّارِ بِمَاءٍ إِنَّمَا
بَشَرُّ الشَّرَابِ

أثر توجيه العطف وتعيين المعطوف عليه في المعنى:

جملة ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ معطوفةٌ: إمّا على جملة ﴿بئسَ الشرابُ﴾؛ فهي عطفُ ذمٍّ على مثله؛ وإمّا على جملة ﴿يَشْوِي أَلْوَجُوهَ﴾؛ وحينئذٍ فمعنى العطفِ يتعيّنُ بمعنى جملة ﴿يَشْوِي أَلْوَجُوهَ﴾؛ فإذا جعلناها مستأنفةً لإنشاء ذمٍّ تلك النار بما فيها⁽²⁾؛ فهي آخذةٌ حُكْمَها، وإذا جعلناها حالاً أو صفةً ثانيةً؛ فهي كذلك آخذةٌ حُكْمَها.

عطفُ الذَّمِّ على
الذَّمِّ تشبيهُ بعد
تقريع

والأولى في ذلك أن تكون معطوفة على ذمٍّ مثلاً؛ وهو قوله تعالى: ﴿بئسَ الشرابُ﴾، وتكون جملة ﴿يَشْوِي أَلْوَجُوهَ﴾ حالاً من الماء؛ أي: إنّ استغاثوا أُغِيثُوا بماءٍ مثل المُهْل، حال كونه شامياً للوجوه، ثم استأنف استئنافاً ابتدائياً بقصد الذمّ ﴿بئسَ الشرابُ﴾، وعطف عليه ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 169.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 309/ 15.

لا ارتفاق في
النار، وهو
محمول على
المشكلة أو
التهم

بلادة ذكّر المرتفق في حق الكافرين:

معنى ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: أي: ساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقة؛ أي: مُتَكاً من المرفق؛ والمرفق: الشيء الذي يرتفق به؛ أي: يُطلب رفقه باتكاء وغيره⁽¹⁾، وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد⁽²⁾؛ فهو المتكأ، ولا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء، فيسأل عن سرّ هذا البيان في شأن أهل النار؟ والجواب أنه محمول إما على المشكلة لقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾⁽³⁾؛ وإما يحمل على سبيل التهم بالكافرين⁽⁴⁾.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3 / 514.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7 / 31.

(3) الرّمخسري، الكشف: 2 / 672.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7 / 31.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-26-5

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»